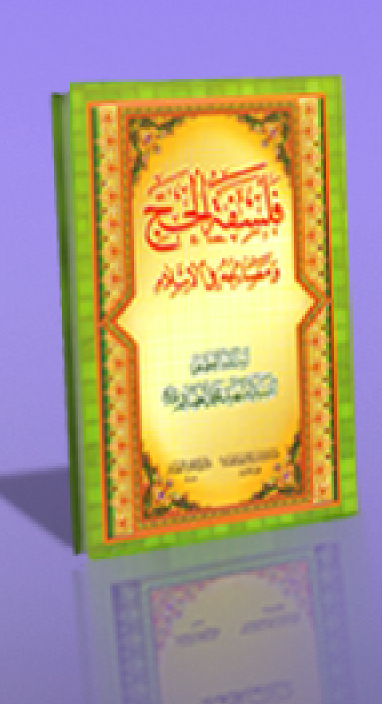
فلسفة الحج





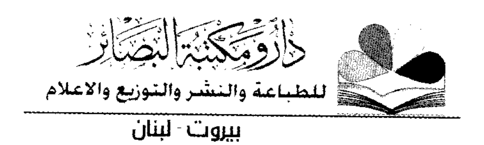
السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره


فلسفة الحج
ومصالحه في الإسلام

٢٠١٠م - ١٤٣١هـ



فاكس: ٠٠٩٦٤٣٣٣٦١١٠٣
تلفون: ٠٠٩٦٤٧٧٠٦٠٦٢٧٧٨
البريد الالكتروني: alturaath_1943@yahoo.com
تلفون لبنان: ٠٠٩٦١٧٠٠٥١٠٨٧



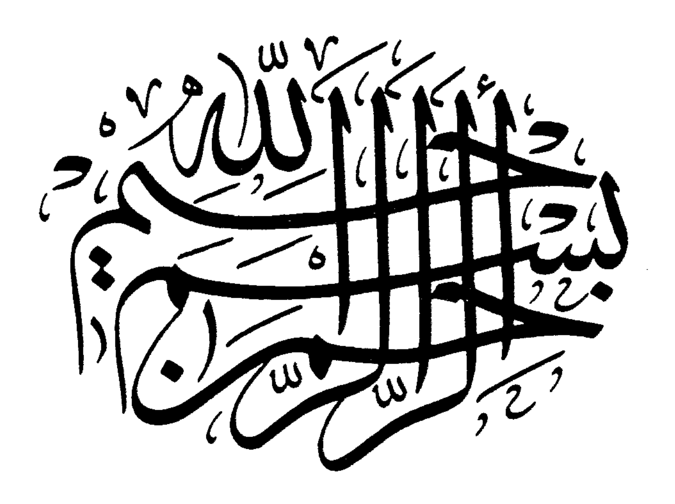
بيروت - لبنان
هاتف: ٧٠٠٥١٠٨٧ - ٠١٢٧٧٣٩٠
Email: iraqsms@gmail.com



آية الله العظمى
السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره





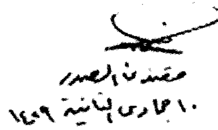

بسم الله الرحمن الرحيم

بسمه تعالى

كان لزاماً علينا أن ننشر هذه الكتب القيمة لما تضم من علم وافر وفكر عال ووعي كبير ونازة جمة للمجتمع كافة... فإن فكر السيد الوالد (قدس) يضم مواضيع كثيرة لابد لنا من نشرها لأنها تصب في بناء مجتمع اسلامي...

وبعد طول انتظار تم بعون الفضلاء والمؤمنين وباشراف مباشر منا بتنضيد وتصحيح وترتيب هذه المؤلفات الجليلة القدر لتخرج للنور فيشع شعاعها على المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها فجزاهم الله خيراً.

علماً أن كل كتاب له (قدس) لا يضم مقدمة لنا فهو ليس صادراً عنا علماً أنه يكون المخول من قبلنا لطباعة هذه الكتب هم: ((هيئة تراث السيد الشهيد)) في النجف الأشرف أو من يحمل تخويلاً خطياً منا



مقتدى الصدر

١٠ جمادى الثانية ١٤٢٩



بسم الله الرحمن الرحيم

ان هذا الكتاب الذي بين يديك عزيزي القارئ، يجعلك ممن يّعي أسمى معاني الحج وأسراره.

هذا الكتاب الذي خطه سيدنا الصدر، ومرجعنا وولّينا قبل أعوام طوال، أي ما يزيد عن خمسة وثلاثين عاماً، فأنظر إلى ما يملكه من علم غزير، وفهم لأسرار العبادات التي لا يطلع عليها إلا من يملك حساً باطنياً، وأخلاقاً سامية، وعلماً عالياً، يهبها لأمثاله من الأولياء والصالحين، وكما كان يقول(قدس سره): (الإجتهاد نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده). (انتهى).

نعم، وأضيف على ذلك: الأعلمية هبة يعطيها لمن يستحقها، وهو الأعلم بحق.

مضافا إلى ان هذا الكتاب الفريد من نوعه، يجعل جل أيامك، بل كلها حجا، ويجعلك أينما تحل فأنت في حرم ومكان مقدس، فهو يعطيك الخطوط العامة لنهجك اليومي، وحياتك

الخاصة والعامة، وعلاقتك مع ربك، ومع عدوك الأكبر والأصغر، سواء في ذلك النفس التي بين جنبيك، أو شياطين الإنس والجن، وأعداء الدين والمذهب المتمثلة بالثالوث المشؤم، والاحتلال البغيض الذي يجثم على صدر عراقنا الحبيب، ويدنس أراضيه، ويعطيك المثل الأعلى في التعامل مع الشياطين والأعداء، ورجمهم وعصيانهم بعد طاعة الله جل وعلا، فهو يدعوا ان يكون الجميع مطيعا لله، مطبقا لأوامره، تاركا لمحرماته، وملتزما بأوامره، كأنك في إحرامك وفي طوافك وفي سعيك. فأنت دوما ساعيا إلى الله تطوف حول وحدانيته طالبا توحيده، وكن عاصيا وراجما للشيطان. وعهدا ان نذيق الأعداء ناراً صليّا.

مقتدى الصدر

آخر ذي القعدة ١٤٢٨ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لهذه الرسالة تاريخ لا بد من إثباته لأجل الحقيقة والتاريخ!

فقد حج أحد الأطباء المشهورين في النجف الأشرف إلى مكة المكرمة عام ١٣٨٧هـ وحين عاد من حجه سألني عما إذا كنت أعرف مصدراً تذكر فيه مصالح الحج ووجوه الحكمة من أفعاله، فوجدتني خالياً عن الجواب جاهلاً بوجود مثل هذا الكتاب! بين الكتب الإسلامية، فاعتمدت - بحسن التوفيق الإلهي - على ما كان لدي من رؤوس أقلام من بعض المحاضرات التي ألقيتها في مدرسة العلوم الإسلامية للأمام الحكيم قدس سره فحولت العناوين إلى فصول، والمختصرات إلى تفاصيل، فكانت هذه الرسالة كمحاولة لملء هذا الفراغ المؤسف في الكتب الإسلامية، عسى الله أن يجعلها نافعة لإخواننا المؤمنين وقربة لوجهه الكريم انه ولي التوفيق.

ولعل الأنسب ونحن في مبدأ هذا الموضوع،أن نذكر مختصراً عن الخريطة العامة لأفعال الحج، كما يراها الإسلام ويشرعها ليستطيع القارئ أن يضع كل فعل من أفعال الحج في محله الصحيح عندما يرد اسمه في غضون هذه الرسالة.

الواجب على البعيدين عن مكة بمقدار معين، أنهم إن استطاعوا الحج، أن يقصدوا الديار المقدسة لأدائه، فيمرون على الميقات، وهو المكان الذي خصصه رسول الإسلام ﷺ لإحرام المسلمين فيُحرمون، وذلك بالنية ولبس القماش غير المخيط - للرجال - ومن دون حلي وزينة للنساء، مع ركعتين من الصلاة، والتلبية بعدها[١] وبذلك يدخل الفرد في حال تؤهله للقيام بالأفعال المطلوبة، ويحرم عليه الصيد البري واللذائذ الجنسية والكذب وغير ذلك.

ويقصد بإحرامه مكة المكرمة، فيطوف حول الكعبة سبع مرات، ويستلم الحجر الأسود في بدء كل شوط وفي الختام، ثم يصلي ركعتي الطواف في مقام إبراهيم عليه السلام ثم يسعى بين الصفا والمروة - وهما جبلان مجاوران للمسجد الحرام تقريباً - سبع مرات ثم يقص من شعره شيئاً وتنتهي عمرة التمتع.

(١) ونصها: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

ثم يحرم الحاج من مكة، ويخرج إلى أرض عرفات فيبقى بها من زوال اليوم التاسع من ذي الحجة الحرام إلى غروبه، ثم يذهب إلى أرض المزدلفة، أو المشعر الحرام فيبقى فيه من فجر اليوم العاشر إلى طلوع الشمس وبذلك يبدأ عيد الأضحى.

فيذهب إلى منطقة «منى» ليؤدي وظائف العيد الرئيسية الثلاث وهي رمي جمرة العقبة[١] والذبح والحلق ثم يرجع في ذلك اليوم أو غده إلى زيارة مكة لأداء طواف الحج وركعتيه وسعي الحج وطواف النساء وركعتيه، ثم يرجع إلى منى ليبقى فيها اليوم الحادي عشر واليومين اللذين بعده، ليرمي في كل يوم ثلاثاً من الجمرات، وبانتهاء اليوم الثالث عشر - على أقصى تقدير- تكون أفعال الحج قد انتهت.

(١) الجمرة: جدار معين يرمى بسبع حصيات، والجمرات ثلاث في«منى» أهمها«العقبة» وتطلق الجمرة على الحصية الواحدة أيضا مما يرمى..

فلسفة الحج ومصالحه في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله المتعالي الذي خلق الخلق ليعبدوه، وهداهم النجدين ليوحدوه، ولم يخلقهم عبثاً ولم يدعهم هملا، بل كلفهم على قدر طاقتهم وكفل لهم تنظيم دنياهم وآخرتهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

أما بعد: فإن الله تعالى لم يأمر بأمر عبثاً ولم يكلف بشيء شططا، بل على طبق حكمة ومصلحة يتبع أثرها العبد المطيع، ولا ينال الله منها شيئاً، فإنه غني عن العالمين، وحاشاه من اللهو والعبث، وجل عما يقولون علواً كبيراً.

والمصالح والحكم المتصورة في الأحكام الشرعية الإلهية على وجهين:

الوجه الأول:

ما ألمعنا إليه الآن من وجود مصلحة في الفعل المأمور به، تعود إلى العبد الممتثل، ووجود مفسدة في الفعل المنهي عنه، ترجع إلى العاصي، وهذا يشمل أغلب أحكام الشريعة ويندرج القسم الآخر في الوجه الثاني الآتي.

وهذه الحكم في الأفعال المتعلقة للأوامر والنواهي أمور أخذها الله تعالى بنظر الاعتبار في تشريعه، وجعل على نفسه إيصال التشريع إلى المكلفين عن طريق أنبيائه ورسله ولكنه لم يتعهد بإبلاغ تفاصيل المصالح التي لاحظها إلى العباد أيضاً. كما أنه ليس من وظيفة أي مقنن عندما يصدر قانوناً نافذاً على شعبه أن يذكر له المصالح والدوافع الحقيقية التي أوجبت وضع كل تشريع من تشريعاته.

والله تعالى بكماله وعلمه الأزلي المطلق، مطلع وعالم بتمام المصالح والمفاسد المتعلقة بالبشر، فإنه خالقهم والعالم بآلامهم وآمالهم وحاجاتهم ومشاكلهم وطرق تذليل تلكم المشاكل وإشباع هذه الحجات، وعلى هذا الأساس صدرت تفاصيل تشريعه.

ومن هنا قد لايمكن للإنسان - وهو المحدود القاصر- أن يطلع على التفاصيل الكبيرة للمصالح الأساسية التي أخذت بنظر

الاعتبار في التشريع الإلهي الإسلامي، بل قد يلتفت إلى بعض تلك المصالح وتفوت عن ذهنه جملة منها، فلا يفهم أنّ هذا التشريع أو ذاك مجعول على طبق أي مصلحة.

ونحن بعد علمنا بأن الله خالقنا وموجهنا وقائدنا، وإنه لا يريد لنا إلا الخير والعدل والنظام في تشريعه وتكوينه فلا ضرورة لأن نتجشم عناء البحث عن المصالح الكامنة في تشريعه، بل لنا أن نطمئن سلفاً إلى العدل الكبير والخير العميم الذي سوف يعمنا لو طبقت التعاليم الإسلامية بكامل تفاصيلها، ولا تحتمل وجود الظلم أو الضرر في الشريعة إلا ما كان وارداً علينا من أنفسنا ومصالحنا الخاصة، مما يكون التشريع منزهاً عنه.

إلا أننا - إذ نكون بصدد البحث عن هذه المصالح - قد نوفق إلى نعمة الاطلاع على بعضها فنشكره تعالى على توفيقه، وأخرى نكون قاصرين عن إدراك ذلك فندعو الله قائلين: رب زدني علماً.

الوجه الثاني:

للمصالح المتصورة في الأحكام الشرعية: أن تكون المصلحة في نفس الأمر لا في المأمور به.

وذلك لأن الله تعالى أمر ببعض الأفعال لا لخصوصية فيها أو

لميزة تتصف بها، وإنما يريد الله عز وجل أن ينظر إلى مدى طاعة عباده له ومقدار إنقيادهم لتشريعه وامتثالهم لأوامره، فيختار فعلا - مما لا ضرر فيه - فيأمر به متوخيا ذلك الغرض، وهو معنى أن المصلحة تكمن في نفس توجيه الأمر المكلف لا في المأمور به.

ولعل من ذلك عدد ركعات الصلوات اليومية، وأوقاتها، وفي الحج - الذي نحن بصدده - عدد أشواط الطواف والسعي وعدد حصيات الرمي وعدد الجمرات الثلاث، وبعض الأحكام الأخرى، والله العالم بحقائق الأمور.

وإذا كنا جاهلين بمصلحة بعض التشريعات، فيجب أن نكون حذرين في الجزم باندراج التشريع في القسم الأول أو الثاني من الوجهين أو القسمين السابقين، فلعل المصلحة تكون في الفعل المأمور به ونحن نتخيلها في نفس توجيه الأمر أو بالعكس، فإن جزمنا بأحد الأمرين من دون علم، كنا واقفين موقف المفتري على الله بدون مستند صحيح أو ركن وثيق.

على أننا يجب أن لا ننكر مصلحة أي حكم شرعي، لمجرد كونها تناقض مصالحنا الخاصة أو مجتمعنا أو تقاليدنا أو غير ذلك، فإن المنظور في مصالح الأحكام الشرعية أحد أمرين:

أحدهما:

تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، الأمر الذي يقره العقل وسائر القوانين، وليس أن القانون إذا ناقض المصلحة الخاصة كان خاطئاً أو ظالماً، إن كان موافقاً للمصلحة العامة.

ثانيهما:

تطبيق جميع الأحكام الإسلامية دفعة واحدة في مجتمع معين لكي يكون المجتمع الإلهي العادل الأمثل. وفي مثل ذلك المجتمع سوف لن توجد غالب الأحاسيس التي نحسها تجاه إطاعة الأحكام الشرعية وتجاه مصالحها ومبادئها ونتائجها، مما نحسه ونحن نعيش في مجتمع منحرف قد طبق بعض الكتاب وكفر ببعض، فإن المصالح تكون في ذلك المجتمع الأمثل أوضح ومنافياتها الظالمة من التقاليد والمصالح ونحوها اقل بكثير إلى حد لا يكون محل مقارنة وقياس.

المصالح العامة في الحج

تنقسم المصالح المتصورة في الحج إلى قسمين رئيسيين:

أولهما:

المصالح المتوخاة من الحج كوظيفة اجتماعية موحدة منظوراً إلى أفعاله على وجه المجموع لتكوّن العمل الإسلامي الواحد المسمى بالحج.

ثانيهما:

المصالح المتوخاة من وراء كل فعل من أفعاله إذا نظر إليه بحياله، لكن كجزء من الفريضة الكبرى.

وسنتكلم في هذا الفصل عن القسم الأول من المصالح.

وقبل الدخول في تفاصيل المصالح العامة في الحج، لا بد من الالتفات إلى أنها تنقسم من ناحيتين:

الناحية الأولى:

أن بعض هذه المصالح شخصي وبعضه اجتماعي. فما كان منها اجتماعياً فهو يفيد الأمة الإسلامية بشكل مباشر كما هو واضح، وما كان منها شخصياً، فهو يفيد الأمة عن طريق صياغة نفس الفرد وتربيته وإنشاء الشخصية الإسلامية العاملة المتكاملة من جميع الجهات، لتكوّن العضو البنّاء المساهم في خدمة المجتمع الإسلامي والأمة الإسلامية.

الناحية الثانية:

إن بعض هذه المصالح حسي مباشر وبعضها رمزي. فما كان حسياً مباشراً ترتب عليه أثره الشخصي أو الاجتماعي بشكل واضح، على ما سيأتي تفصيله، وما كان منه رمزياً فإنه حلقة واحدة من حلقات، وفرد يمثل أفراداً وعمل ينتج أعمالاً، كما نقول في الدينار الورقي، إنه يمثل الدينار الذهبي، أو نقول في الفرد أنه يمثل الجمعية ونحو ذلك من الأمثلة. وعلى أي حال فقد وجدنا في الحج من المصالح العامة ما يصل تعدادها إلى العشرة:

المصلحة الأولى:

تذكر الله تعالى دائماً، على استمرار، فإن الإنسان بطبيعته حين

يعمل عملاً من أجل هدف، فإنه يكون متذكراً لذلك الهدف عمله في مقدماته أو نتائجه، مهما حاول التغاضي أو التناسي، فالبنّاء أو العامل يتذكر أنه يعمل لفلان، والمسافر يتذكر أنه متجه إلى مقصده.. وهكذا، ومن ذلك أننا نجد أنه من الصعب على الصائم أن ينسى صومه، وعلى المصلي أن ينسى صلاته، أو على المعتكف أن ينسى اعتكافه!..

فإذا كان الهدف من العمل هو الله تعالى، والتقرب إليه بما يحبه ويأمر به، كما هو الحال في الحج، كان الله تعالى نصب العين دائماً وحاضراً للفرد على استمرار في كل أفعال الحج، لأن الفرد يشعر أنه يعمل عملاً لله وأنه يضحي في سبيله.

وهذا الشعور المستمر بالله عز وجل، ودوام ذكره يعطي درساً واضحاً للحال الذي يجب أن يكون عليه المؤمن في سائر أيام حياته وساعاته، متذكراً لله تعالى، آخذاً بنظر الاعتبار ثوابه وعقابه، غضبه ورضاه، حتى يكون شعوره بالمسؤولية تجاه ربه ودينه أكثر، واندفاعه نحو الطاعة وارتداعه عن العصيان أعمق وأشمل.

المصلحة الثانية:

إن العبد ليس متذكراً لله تعالى فقط، بل هو دائماً في شعور

مستمر على أنه يعمل في سبيل الله ويقوم في المشاعر كلها من أجله ولإطاعة أمره.

وهذا أيضاً يعطينا رمزية واضحة وكاملة عما يجب أن يكون عليه الفرد دائماً وأبداً، عاملاً في سبيل الله مطيعاً لأوامره، عاكفاً على مرضاته، في كل تفاصيل سلوكه.

المصلحة الثالثة:

إن العبد لا يشعر فقط أنه يعمل في سبيل الله تعالى، بل أنه يضحي في سبيله بقيامه بهذا العمل. فإن الحج، كما هو معلوم، ليس أمراً سهلا كركعات الصلاة، وإنما يحتاج إلى جهد بدني وفكري كبير، ولمدة كافية من الزمن تبدأ ببدء السفر وتنتهي بالرجوع، يؤدي الفرد كل ذلك طائعاً مختاراً راضياً لعله ينال مرضاة ربه وقربه.

وهذا أيضاً يعطينا رمزاً ودرساً عن الحالة التي يجب أن يكون عليها الفرد المؤمن الواعي دائماً وأبداً في سائر أيام حياته وساعاتها، فإن العمل في سبيل الله لا يكون كافياً وحده، ما لم يكن مقترناً بالتضحية من أجله بالمصالح الضيقة والشهوات والانحرافات، وإلا كان الفرد أقرب إلى سخط الله وعصيانه منه إلى قربه ورضوانه.

والعمل الإلهي دائماً مقترن بالعقبات والتضحيات التي ينال المرء منها قسطاً غير قليل من المتاعب والآلام، وكلما كبر الأمل. كبر الألم، وكلما كبر العمل كبرت التضحية وعظم القرب الإلهي والعدل الإسلامي، فهذا هو الذي ينبغي أن يأخذه المسلم الواعي بنظر الاعتبار، دون أمور أخرى لا تؤدي به إلا إلى العثار.

المصلحة الرابعة:

غفران الذنوب وتصفية النفس. فإن كل فرد ما عدا المعصوم لا بد أن يكون قد اقترف خلال حياته ذنباً قليلاً أو كثيراً فإن للدوافع الغريزية والحاجات النفسية والاجتماعية دافعاً نحو الانحراف لايمكن إنكاره، فقد يخرج الإنسان بضميره ووعيه ظافراً منتصراً.

فلا يخضع لدفعها أو يذل أمامها، وقد يكون اندفاعها أقوى من إرادته وأمرها أعظم من وعيه فينهار أمامها ويقترف الذنب إشباعا لها وسداً لرغباتها، والناس يختلفون كل الاختلاف في درجة مقاومتهم للدوافع المنحرفة، باختلاف درجة إيمانهم ووعيهم وقوة إرادتهم.

وعلى أي حال فالإنسان لا يخلوا من ذنب أو ذنوب، وهذا ما يعلمه الله تعالى من عباده، ومن ثم أعطاه فرصاً عظيمة للتوبة

والغفران. وعلى الفرد المؤمن أن يغتنم هذه الفرص فيسد حاجته من العفو والغفران وتطهير النفس، كما قد سد حاجاته المنحرفة. فإن الحاجات الطاهرة أولى بالإشباع في حكم كل وجدان وضمير.

وكان من أعظم تلك الفرص وأفسحها، مما تفضل الله تعالى به على المسلم المذنب، هو الحج، حيث يحب الله تعالى أن يرى عبده المسلم خاشعاً له متوسلاً إليه منيباً خاشعاً خاضعاً حتى يغفر له زلته ويعفو عن هفوته.

المصلحة الخامسة:

تمثل التاريخ الإسلامي في الأماكن المقدسة، فإن الله تعالى فرض الحج لكي يؤدي في نفس الأماكن التي نشأ فيها رسول الله ﷺ وقام بدعوته الكبرى وأعماله العظمى في أكنافها، وعاش فيها الصحابة رضوان الله عليهم، وأدوا فيها مع الرسول ﷺ واجبهم وجهادهم وعاش فيها عدد من الأئمة المعصومين عليهم السلام، وقاموا فيها بمسؤوليتهم الإسلامية تجاه الأمة والدين.

فما أسعد الحاج إذ يتمثل في تلك الأماكن المقدسة في ذهنه، حلقات ذلك التأريخ الزاهر، فهنا حدثت وقعة بدر وهنا وقعة احد وهنا غار حراء، حيث نزل الوحي بالسعادة للبشرية أجمعين.

وهنا غار ثور غار الهجرة، ذلك المنعطف الإسلامي الأساسي الذي ترتبت عليه أعظم الفتوح وأكبر الانتصارات وهنا منبر رسول الله ﷺ الذي كان يرقاه ويوجه المسلمين بتعاليمه، وهنا الروضة بين قبره ومنبره، وهنا مهبط جبرئيل بالقرآن والأحكام، إلى آخر هذه الذكريات الرائعة الذهبية.

وما اسعد الفرد الواعي إذ يتمثل مع كل ذكرى، ما تحتويه من عبر وجهاد وما تعبر عنه من معان سامية من الإيمان والإخلاص، وما تعطيه من اندفاع نحو العمل الإسلامي والطاعة لله وإخلاص النية له، وغير ذلك من المعاني السامية والمثل العليا.

المصلحة السادسة:

الشعور بعظمة الإسلام وعمق هيبته وهيمنته على نفوس معتنقيه، وقوته ومنعته بهم عند الاحتكاك بالآلاف المؤلفة من الحجيج الذين يؤمون بيت الله الحرام زرافات ووحداناً، كل عام منذ ما يزيد على عشرة قرون.

وسيبقى الحال على ذلك مادام في الأرض موحد مخلص وهذا شعور قهري يحصل للفرد أمام تلك الجماهير المتدفقة سواء أكان موالياً للإسلام أو معادياً له، وسواء كان ملتفتاً أم غافلاً. فيحصل للمسلم الملتفت الشعور بالعزة والفخر بهذا الدين الجليل

الذي مَنَّ الله تعالى عليه باعتناقه، والشعور بالقوة، والاعتزاز بهؤلاء الآلاف من المسلمين الموحدين إخوته في الدين. ويشعر الفرد المعادي بالخذلان والاندحار تجاه هذا المد الإسلامي العظيم.

المصلحة السابعة:

الشعور بالوحدة والأخوة مع الحجاج المسلمين، وبالهدف الواحد المشترك بينهم! فإن هؤلاء المسلمين الذين تجمعوا من مختلف بقاع الأرض، لا تجمعهم لغة ولا تقاليد ولا أزياء ولا حدود، ولا يعرف الفرد منهم الأخر فيما سبق من الدهر، ولم يلاقه إلا على الصعيد المقدس، ولم يجتمع معه إلا في هذا الهدف الإلهي الكبير، فالمؤمنون كلهم أخوة متضامنين متحدين، وهدفهم واحد مشترك هو رضاء الله والتقرب إليه والتضحية من أجله.

وبذلك يفهم الفرد قسطاً مما يجب أن يكون عليه الفرد من الشعور في كل حياته الفكرية والاجتماعية من الشعور بالأخوة والاتحاد مع سائر المسلمين بالهدف والتعالي عن الأحقاد الضيقة والضغائن المصلحية غير الإسلامية التي لا تنفع إلا العدو المشترك المحارب للهدف المشترك.

المصلحة الثامنة:

أن يغتنم الفرد المسلم الواعي، فرصة هذا اللقاء الأخوي الكبير، فيكون بنحو أو آخر على اتصال مع مختلف الحجاج الوافدين من مختلف البلاد الإسلامية، ليتعرف على آلامهم وآمالهم ومشاكل بلادهم وثقافتهم ومستويات تفكيرهم، فإن «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»[١] كما ورد عن الرسول الأعظم ﷺ وبذلك يحصل على ثقافة ضرورية للفرد المسلم الواعي، لا غنى له عنها لو أراد العمل الإسلامي البناء والثقافة الإسلامية الواسعة وسيحصل من خلال هذا الاجتماع الإسلامي الكبير على ما لا يمكن أن يحصل عليه في بلاده مهما تحرى المصادر وقرأ كتب التاريخ القديم والحديث.

المصلحة التاسعة:

أن يغتنم الفرد المسلم الواعي فرصة هذا اللقاء الأخوي الكبير وهذا الاطلاع الواسع على آلام وآمال المسلمين في مختلف البلاد المتقاربة والمتباعدة. فيعقد معهم المداولات والمحادثات ويتطارح الأفكار حول أحسن الطرق وأفضلها. وأقربها إلى الواقع العملي وأبعدها عن الفساد والانحراف مما يمكن به تحقيق آمال

(١) روي ذلك عن الأمام الصادق عليه السلام عن رسول الله ﷺ ـ انظر أصول الكافي.

الإسلام أو درء آلامه. أو سد حاجات البلاد الإسلامية وتذليل مشاكلها.

وأن الحج ليحتوي في كل سنة على عدد مهم من رجال الفكر والعلم والأدب والاجتماع من المسلمين، ممن يكون على المستوى الرفيع من المداولة في الشؤون العامة للأمة، ومطارحة أوضاعها ومشاكلها، على أن كل فرد مسلم يجب أن يكون على ذلك المستوى الرفيع في حمل الهموم الكبرى للأمة والدين وتقديمها على مصالحه والسعي إلى صلاحها جهد الإمكان.

وإن هذه المداولات، أو هذا المؤتمر السياسي الإسلامي الكبير، لو وفق إلى قيادة واعية رشيدة وأفكار بناءة مخلصة، لنالت الأمة الإسلامية منه ومن تكراره كل عام أفضل الثمار، ولأصبح العقبة الكؤود أمام قوى الشرك والانحراف، والصوت المجلجل للأمة الإسلامية والخطوة الموفقة لدفع الآلام وتحقيق الآمال. وهذا المؤتمر السياسي، تصوره بنحو وآخر، أحد السياسيين في كتاب له، على أنه المصلحة الوحيدة لتأسيس الحج وتشريعه في الإسلام وقال: إنه حين عرض هذه الفكرة على ملك السعودية في ذلك الحين وافق عليها، ووجدها المصلحة الوحيدة أيضاً. ويرى القارئ الآن بكل وضوح ما للحج من مصالح خاصة

وعامة زيادة على هذه المصلحة بالذات، وإن كانت هي من أهم مصالحه.

المصلحة العاشرة:

الدعوة إلى الإسلام وتبليغ أحكامه إلى الناس، فإن الحج يعتبر الفرصة الكبرى الوحيدة. لاجتماع مثل هذا العدد الضخم من المسلمين ذلك العدد المتوجه إلى الله الخاشع له، المستعد للعمل في سبيله وسماع أحكامه إلى بعض الحدود وبمختلف الدرجات، فإن الانشغال بالطاعة المتمثلة بشعائر الحج، مما يساعد نفسياً على السماع وحسن التقبل، ولذا يجب على الدعاة المسلمين أن يغتنموا هذه الفرص الكبرى في تبليغ أحكام الله تعالى و إرشاد الناس إلى التقوى والصلاح ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[١] و﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾[٢] وأحر بالداعية أن يكون الرائد المخلص لامتثال هذه الأحكام والممثل الأساسي لتطبيق أحكام الله في أيام الله.... أيام الحج.

ولا يخفى الفرق الأساسي في الدعوة والتبليغ، بين الحج،

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٤ .

(٢) سورة النحل الآية ١٢٥ .

وبين غيره من بلاد الله، ففي أي بلد معين حيث تكون ـ في الأغلب - واحداً والآلام محددة، واللغة متحدة، يكون عمل الداعي الإسلامي الواعي اللبق أسهل بكثير من الدعوة بالحج، حيث لا جامع بين الحاضرين ولا بين الداعية والمدعوين إلا الإسلام، ومعه يكون التبليغ في حدود هذا الأمر المشترك، بمفاهيمه العامة وأحكامه الشاملة من دون أن يتعرض إلى حل مشكلة في بلد معين أو نحو ذلك.

ما لم يكن للداعية الثقافة الواسعة النيرة عن مختلف بلاد الإسلام ومجتمعاتها، مطلعاً على مشاكلها وأمالها ومستويات ثقافاتها وتفكيرها، حتى يستطيع أن يأخذها في نظر الاعتبار تفصيلاً في بحوثه وتبليغاته. هذا على مستوى التبليغ الكلامي لجماهير المسلمين. أما على مستوى العمل الاجتماعي الفعلي لإصلاح حال الحجاج، مثلاً أو القيام بأي عمل آخر، فهو يواجه ما يواجهه نظيره في أي بلد آخر من الصعوبات والعقبات، ولسنا الآن في صدد تعدادها.

فهذا عدد من المصالح التي تترتب على الحج، مما استطعنا أن نفهمه وأن نتصوره. وكل واحدة منها لها من الأهمية ما يكفي مبرراً ومصلحة لتشريع الحج. فضلاً عن تشريعه من أجل الجميع لكي يكون حقلاً يانعاً مثمراً بكل تلك الآثار والأعمال التي

ذكرناها، مضافاً إلى ما سنعرف من المصالح المهمة المتعلقة بخصوصيات أفعاله، مما يكسبه أهمية مضاعفة على ما سنلاحظ.

المصالح الخاصة لأفعال الحج

بعد أن عرفنا المصالح المتعلقة بالحج على وجه العموم لا بد لنا أن نستعرض المصالح المتصورة لأفعاله الخاصة، بما لها من رمزية أو صراحة، وبما فيها من نفع فردي أو اجتماعي، على ما سبق أن فصلنا القول فيه.. وقد سبق أن أشرنا إلى أنه من الصعب أن تحدد المصالح المتوخاة للخطوط الدقيقة لأعماله ومشاعره، وعرفنا سبب ذلك في المقدمة، وإنما تتضح المصالح بشكل جلي في العناوين العامة والخطوط العريضة لأعمال الحج كالإحرام والتلبية والطواف وصلاة الطواف والسعي والموقفين والذبح والحلق ورمي الجمار والنية والوقت، فلا بد من التعرض إلى ما يتصور من المصالح لكل واحد من هذه الأفعال.

الإحرام:

والمقصود الرئيسي منه، هو التجرد عن المادة وعلائق الدنيا في سبيل الله، ولأجل تمحيض التوحيد بالله وتركيز الإخلاص له وتعميق التوجه إليه.

فإن الإحرام بما فيه من زواجر وروادع ونواه صارمة يَدَعُ الإنسان يشعر بعمق أنه باختياره وطيب نفسه، أراد أن يعيش هذه التضحية وأن يخطو في هذا السبيل خطوات لا يريد بها إلا مرضاة الله عز وجل والتوجه إليه، وترك الأمور الدنية واللاأخلاقية كالجدال والفسوق في سبيله. وهو - بحق - يعطي رمزية واضحة عما يجب أن يكون عليه الفرد في سائر أيام حياته من الالتفات إلى تقديم رضاء الله وقربه على مصالحه الخاصة وأطماعه الضيقة، فليس ينبغي أن يقوم في هذا السبيل حائل أو أن يعوق عائق في جميع أعمال الفرد، خاصة وعامة، دينية أو دنيوية.

وإن في بعض شرائط الإحرام خصيصة زائدة وفائدة إضافية:

فمن ذلك المنع عن لبس المخيط للرجل المحرم والمنع عن لبس الحلي للمرأة المحرمة، فإنه يكون مجتمعاً من المحرمين يتساوى فيه الرئيس والمرؤوس والغني والفقير والحقير والعزيز، كلهم بزي واحد وعمل واحد وفي سبيل هدف واحد وعبادة واحدة، جمعهم التشريع الإلهي على صعيد واحد، وأُلغي بينهم الفوارق الدنيوية والزخارف الزائفة ولا تبقى إلا المميزات الشرعية المعترف بها إسلامياً. وهي العلم والتقوى والجهاد، فإن المحرم يخرج من زيه وجماله وماله ولكنه لا يخرج من علمه وتقواه

وجهاده وإنما يضيف بحجه إلى علمه عملاً وإلى تقواه خشوعاً وإلى جهاده تضحية.

على ان زي الإحرام يذكر بحال الموت وزيه وما يلبس فيه من الأكفان، تلك الحال التي تعرب عن التساوي بين الناس بشكل أصرح، ويكون انعدام الفوارق بين القبور أجلى وأوضح، وفي ذكر الموت شحذ لإحساس المسلم وهمته إلى طاعة الله ورضوانه والعمل في سبيله، وإعلاء تفكيره وتدقيقه، ونحوها من الأحاسيس التي يتطلبها الإسلام من الفرد في خطه التربوي الطويل.

ومن شرائط الإحرام ذو الخصيصة الزائدة سياق الهدي للحاج القارن، فان فيه الفوائد والحكم التي ستذكر في الهدي ان شاء الله تعالى.

التلبية:

وهي ركن أساسي في الإحرام لا ينعقد إلا به، وفي ذلك من المعنويات الكبيرة التي تقرن الإحرام، وبالتالي كل الحج، بالنداء المقدس الذي قاله إبراهيم خليل الرحمن على نبينا وعليه السلام

ناطقاً عن تشريع الله تعالى حين أمره ربه العلي العظيم قائلاً: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾(١).

ولا يخفى ما في هذا النداء الإلهي من دعوة رحيمة كبرى للبشر أجمعين تعطيهم الفرصة الكبرى، بالتوجه إلى الله والحصول على رضاه وقربه، وهو الهدف الأعلى للبشرية الذي يمثل كمالها المنشود، ومن ثم يشعر المحرم الواعي أنه قصد الديار المقدسة وقام بهذه الفريضة الكبرى إجابة لنداء ربه وتلبية لدعوته.

وليس ينبغي للفرد المسلم أن يجيب نداء ربه في الحج وحده، بل عليه ان يطبقه على سائر أيام حياته، ويلبيه في كل تصرفاته، ليكون الفرد الكامل البناء في المجتمع الكبير، وهذه هي الرمزية التي تعطيها التلبية للسير والسلوك في كل أيام حياته.

الطواف:

الكعبة تمثل الوجود المادي الرمزي للتوحيد الخالص الذي جاء به الإسلام وجاء به إبراهيم الذي وضع قواعد هذا البيت

(١) سورة الحج: الآية ٢٧ .

و﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(١) وبالتالي يمثل - بنحو الرمز - الوجود الإلهي على الأرض، ومن ثم انبثقت تسميته ببيت الله وأمر الإسلام بالتوجه إليه في كل صلاة رمزاً للتوجه إلى الله نفسه إيماناً وعبادة، ومعه يكون من الطبيعي أن يكون قصد الكعبة من البلد البعيد والقريب، قصداً مادياً وقصداً معنوياً للتوحيد، ولدين الله العظيم، ويكون إظهار الإخلاص لها إظهاراً لإخلاص التوحيد، ويكون التقرب إليها بالذبح والنحر تقرباً إلى التوحيد الإلهي، ويكون الدوران حول الكعبة بالطواف وجعلها مركز الإحساس المادي رمزاً حياً عن الدوران حول التوحيد، حول دين الله القويم والحق الصريح، وجعله مركز الإحساس المعنوي، ومركز النشاط الإنساني.

والإنسان إذا دار مدار التوحيد الخالص وشريعة الله عز وجل في سلوكه وإحساسه، فإنه يكون حتماً الفرد الكامل العظيم الذي ينتهج المنهج العام للإسلام في تربية النفوس.

يقول محمد أسد المستشرق النمساوي المسلم، معرباً عن مثل هذا المعنى: ان جزءاً من فريضة الحج ان تطوف بالكعبة سبع مرات، لا احتراماً لقدس الإسلام المركزي فحسب، بل لتذكير

---

(١) سورة الحج: الآية (٧٨).

النفس بالمطلب الأساسي للحياة الإسلامية ان الكعبة هي رمز وحدانية الله وحركة الحاج الجسمانية من حولها هي التعبير الرمزي للنشاط الإنساني ومضمونه، إن أفكارنا ومشاعرنا وكل ما يشمله تعبير «الحياة الباطنية» ليست هي وحدها التي يجب ان يكون محورها الله، بل كذلك حياتنا الخارجية الناشطة وأفعالنا ومساعينا العملية(١).

ويقول قبل ذلك عن بناء الكعبة: لقد عرف من بنى الكعبة انه ما من جمال في تناسق البناء وما من كمال في خطوطه مهما كان عظيماً يمكن أن يوفي الفكرة الإلهية حقها، وهكذا قصر نفسه على أبسط شكل مثلث الأبعاد يمكن أن يتصوره العقل مكعباً من الحجر.

لقد سبق لي أن رأيت في بلدان إسلامية مختلفة مساجد أبدعت في بنائها أيدي الفنانين من المهندسين المعماريين العظام، ثم يعدد قسماً كبيراً منها ثم يقول: كل هذه سبق أن رأيتها ولكن شعوري لم يكن قط قوياً كما كان الآن، أمام الكعبة. بأن يد الباني كانت على مثل ذلك القرب من مفهومه الديني، ففي بساطة المكعب المطلقة، في الإنكار التام لكل جمال للخط والشكل،

(١) في الطريق إلى مكة ص ٣٩٨ .

نطقت هذه الفكرة تقول أيمّا جمال قد يستطيع الإنسان أن يخلقه بيديه يكون من الغرور اعتباره جديراً بالله، وإذن فكلما كان ما يستطيع الإنسان أن يتصوره بسيطاً كان ما يستطيع فعله لتمجيد الخالق أعظم ما يكون[١].

إستلام الحجر:

هو من مميزات الطواف الرئيسية، وتنبثق فكرته من فكرة الطواف نفسه، فإذا كان الطواف الرمز المادي للدوران حول فكرة التوحيد وجعلها المركز الأساسي لنشاط الإنسان وسلوكه، فأحرى باستلام الحجر الأسود، أن يكون الرمز المادي للاتصال بفكرة التوحيد وملامستها في عالم الفكر والمعنى، لأنه ملامسة للرمز الذي يمثل الله في الأرض «الكعبة» وفي ذلك من المعنى الجليل في القرب الإلهي والتعمق في التوحيد ما لا يتوفر بأي عمل آخر.

ويمكن أن تستفاد من الأثر الوارد حكمتان أخريان.

أحدهما: أن الحجر يمين الله في أرضه، وأن استلامه مبايعة لله تعالى فلئن كانت البيعة للخلفاء والعظماء مشروعة اجتماعياً أو

(١) المصدر نفسه ص ٣٩٧ .

إسلامياً، مرة واحدة لكل شخص عظيم، دلالة على الاقتداء به وبيع الولاء والطاعة المطلقة له، والدلالة على أنه من شعبه ومواليه، فهذا هو ما ينبغي أن يحدث بين الله وبين عباده إلا أن هذه المبايعة سوف لن تكون شكلية ولن تقتصر على المرة، بل ينبغي الاستلام في كل شوط من أشواط الطواف وينبغي البقاء على المبايعة والولاء والإيمان مدى الحياة.

ولئن كانت بيعة الشجرة بيعة لله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(١) فإنها بوجودها العام غير خاصة بأولئك النفر المعينين، وإنما هي فرصة مفتوحة لكل مسلم بأن يجدد بيعته وولاءه لربه في كل عام، وفي ذلك تعميق للإخلاص وشحذ للإيمان وتجديد للاندفاع العقائدي في وجدان الفرد الواعي.

وإذا كان الفرد لا يمكنه أن يتصل بالله تعالى مباشرة فقد جعل الله تعالى له رمزاً عن ذلك في نفس الكيان المادي الرامز إلى توحيده ووجوده، لتسنح الفرصة الرحيمة الكافية لنيل شرف البيعة الإلهية مع سائر المسلمين.

الحكمة الثانية: ان الحجر الأسود يشهد لأعمال الخلائق يوم

---

(١) سورة الفتح: الآية (١٠).

القيامة. وليست هذه الشهادة ببدع جديد، بعد أن نطق التنزيل الحكيم بشهادة أيدي المجرمين وأرجلهم يوم القيامة بما عملوا من أعمال وما قاموا به من إجرام فكذلك الحجر يعتبر فرصة ثمينة لكل حاج بأن يشهد له يوم القيامة بأنه زار البيت وأستلم الحجر، وبالتالي يشهد له على هذا العمل الصالح الذي قام به هذا المؤمن وهو «الحج».

صلاة الطواف:

وهي من شرائط صحة الطواف، وبالتالي لا يتم الحج كله إلا بها، وهي تحتوي على عدد من المعاني الكبيرة:

أولاً: أن الله تعالى لم يرد أن يخلو الحج وهو أكبر عبادات الإسلام من الصلاة. وهي عمود الدين وعلامة إسلام المسلمين وأن الحج ليزداد شرفاً وعمقاً بانضمام الصلاة إليه. بحيث تكون داخلة في تركيبه وتعتبر من بعض أجزائه.

ثانياً: وهو مما يترتب على المعنى الأول وهو أن من لا يعرف كيف يصلي بالرغم من كونه يزعم اعتناق الإسلام فإنه يبطل حجه مضافاً إلى بطلان صلاته، فالصلاة إذن محك صحة الحج وبطلانه.

وأما المصلي فتنفتح أمامه فرصة جديدة للخشوع لله تعالى والتوجه إليه ومخاطبته وجهاً لوجه، خلال هذه الفريضة الجليلة، فإن الحج على عظمته لا يستطيع أن يكفل التوجه إلى الله ومخاطبته بالمقدار الذي تكفله الصلاة، وبخاصة إذا جيء بها في مقام إبراهيم عليه السلام في بيت الله الحرام.

ثالثاً: إن هذه الصلاة تحية معطرة، وفيض من الاحترام والإكبار يجب أن يبذله الحاج لإبراهيم عليه السلام في مقامه، وهو الذي رفع القواعد وأذن في الناس بالحج، ففتح هذه الفرصة الإلهية الكبرى التي استغلها الحاج ونال رضاء الله تعالى عن طريقها، ولو لم يكن لولا عمل إبراهيم وندائه بمتمكن أن ينال ذلك.

فإذا كانت المساجد تحيتها الصلاة، والموتى يبعث إليهم الثواب عن طريق الصلاة، وليس في تلك ولا هؤلاء تلك الأهمية التي أكتسبها عمل إبراهيم العظيم. إذن فما أجدره عليه السلام بركعتين من الصلاة تقام في مقامه شأنه في ذلك ـ بكل تواضع ـ شأن كل مسجد أو بيت!.

السعي:

وهو يمثل السعي في حدود الشريعة الإسلامية والأوامر الإلهية، ويعطي رمزية واضحة عن التردد في داخل حدود تلك الأوامر والتعاليم. فإن لتلك الأوامر حدوداً هي حدود الله تعالى يجب على الفرد عدم تعديها بالزيادة عليها أو بالنقيصة منها، وإلا كان منحرفاً هداماً ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[1].

فالفرد المؤمن ملتزم بتعاليم الله مقتصر عليها متردد في سلوكه ضمن حدودها فإن حام حول الشبهة رجع إلى الشريعة وإن أرتكب مخالفة لجأ إلى التوبة، وأن شط به المزار تذكر الله فإذا هو مبصر.

فالصفا والمروة: اللذين هما حدود السعي المادي في الحج، يعطيان رمزية واضحة عن تلك الحدود المعنوية الكبرى التي يكون خلالها سعي الإنسان وسلوكه في الحياة لو أراده خالصاً مخلصاً مطابقاً لأوامر الله وتعاليم الإسلام على أن السعي هو أسوة حسنة وإقتداء جميل بما فعلته (هاجر) أم إسماعيل الذبيح وزوجة إبراهيم الخليل عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

تلك المرأة الصابرة المجاهدة التي ذاقت من صنوف التضحية

---

(١) الطلاق: الآية ١ .

أقساها ومن مرارة الحياة أشدها وعاشت في وادي غير ذي زرع، لأجل أن تكون كما شاء الله تعالى سواء علمت أو لم تعلم، البذرة الأولى للبدء ببناء البيت الذي يمثل التوحيد الخالص على وجه البسيطة. ومن المنطقي أن يؤمر الحاج بمواساة تلك المرأة الصابرة أثناء محنتها الكبرى، حين كانت تبحث لأبنها الصادي عن الوِرد، فصادف أن سعت بين الصفا والمروة سبعة أشواط. فعلى المسلمين أن يتذكروا ولادة البيت العتيق الممثل لعقيدة التوحيد، بمواساة هاجر والسعي في مسعاها أثناء محنتها الكبرى.

الموقفين:

موقف الحجاج في عرفات وموقفهم في المشعر هما يعطيان شعوراً موحداً، ورمزاً مشتركاً، وفي تكرار هذا الشعور مزيد من التأكيد على أهمية وترسيخ فكرته في نفوس المسلمين. إن هذا الموقف هو الفرصة الأساسية لإطلاع كل فرد من الحجاج على إخوانه في الله والمساهمين معه في إجابة ندائه. فإن الحاج في سائر أعماله ـ عدا الموقفين ـ لن يستطيع أن يحتك بهذا الجمع الغفير ويحس عن قرب بالعدد الضخم المتلاطم العامل في سبيل إطاعة ربه وأداء فريضة حجه.

إن الحجاج يكونون عادة، في العمرة، وفي الطواف وفي

السعي، وفي رمي الجمرات، وغيرها من الأعمال. متفرقين مشتتين، لا يؤدون العمل في زمان واحد ولا يجتمعوا على صعيد واحد، إلا في أرض عرفات وأرض المشعر، فما هو شعور المسلم عند مواجهة إخوانه، وما أعظم الإسلام وما أكبر ندائه الذي يستطيع أن يجمع هذه الآلاف في هذا العام وفي كل عام. وما أعظم الأخوة التي تشد بعضهم إلى بعض بالرغم من تباعد البلدان وتشتت اللغات. إنها أخوة الهدف والعمل. أخوة الإيمان والعقيدة وهي أقوى الأخوات وأرسخها في منطق البشرية والتأريخ (أخوان لي عن اليمين، وأخوان لي عن اليسار، كلهم لا أعرفهم، ولكن أحد منهم ليس غريباً عني. فنحن في فرحة سباقنا المضطربة جسمٌ واحد يسعى إلى هدف واحد إن العالم أمامنا فسيح، وفي قلوبنا تتألق شرارة من النار التي اشتعلت في قلوب صحابة النبي ﷺ إنهم يعرفون. إخواني عن يميني وإخواني عن يساري أنهم قد قصروا عما كان ينتظر منهم، وأن قلوبهم قد تضاءلت عبر القرون ومع ذلك فإن وعد الله الحق لم ينتزع منهم.. منا)[١]

وما أثمن هذه الأرض المقدسة التي شهدت جهود النبي ﷺ وأصحابه وابتهالاتهم الصادقة الخالصة، وشهدت ابتهالات القرون المتوالية وجهودها المتواصلة.

---

(١) محمد أسد: في الطريق إلى مكة ص ٤٠٢ .

ولو كان الموقف واحداً لأعطى بنفسه هذا الرمز الكبير وهذا الإحساس الإسلامي العميق، ولكن المسلمين في هذا العام وفي كل عام، لا يقتصرون على التجمهر في عرفات بل يدفعهم النداء الإلهي إلى الإسراع في خلال الليل البهيم ليلبوا الواجب المقدس في أرض المشعر، لكي يعطوا تأكيداً جديداً للإحساس الإسلامي العميق ولكي يجددوا بابتهالاتهم المتصاعدة الأمل الكبير في غفران الذنوب وستر العيوب وحل المشكلات.

منى:

ثم يأتي دور الأرض المقدسة الأخرى التي تؤدي فيها شعائر عيد الأضحى المبارك وينحل فيها القسم المتزمت من شرائط الإحرام: أرض منى.

والبقاء في منى. غير مراد بنفسه في الشريعة، على الأغلب، وإنما يضطر الحاج إلى الوجود هناك لكي يقوم بأعمال حجه فيها، فهناك الذبح ورمي جمرة العقبة والتقصير في عيد الأضحى. وتكرار رمي الجمرات في الأيام التالية له.

فمهم الفرض هو أن نحمل فكرة واضحة، عما يتصور من المصالح الأساسية والحِكم المتوخاة من هذه الأعمال. نبدأ ذلك

بذكر الفكرة الأساسية التي قام على أساسها تشريع عيد الأضحى نفسه.

عيد الأضحى:

تقوم فكرة الأيام المتبركة إسلاميا على أحد أسس ثلاثة تنقسم الأيام باعتبارها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

الأيام التي تكتسب أهميتها باعتبار أن حادثة مهمة في الإسلام قد وقعت فيها، كولادة النبي ﷺ وولادة أمير المؤمنين عليه السلام ووقعة بدر ويوم المعراج ويوم الغدير، ونحو ذلك. فهذه هي أيام المناسبات التي تعطي للمسلمين بتجدد ذكراها المعاني السامية لذلك الحدث الواقع في مثل ذلك اليوم فيتجدد لهم اندفاع الإيمان وقوة الشعور بالمسؤولية والقيام بالواجب الإسلامي المقدس.

القسم الثاني:

الأيام التي تكتسب أهميتها باعتبار كونها وقتاً لأداء عبادة كبيرة في نظر الإسلام، وأهم أمثلة ذلك ليلة القدر في شهر رمضان، بل أيام الشهر كلها، ويوم عرفة في الحج، فإنها واقعة في أوج أداء

العبادة وقمة اندفاع المكلف في التوجه إلى ربه فيها.

القسم الثالث:

الأيام التي تكتسب أهميتها باعتبار كونها أول يوم لفراغ المكلف من عبادة مهمة في الإسلام، فإنه من الوجداني المحسوس أن أداء أي واجب يقوم به الإنسان يعطي راحة محببة واطمئناناً للضمير، لو كان للضمير وجود وكذلك العبادات للمسلم باعتبارها الواجب الإلهي المقدس يعطي الفراغ منها مقداراً مهماً من الراحة والاطمئنان والشعور بأداء الرسالة والقيام بالمسؤولية.

وكلما كبرت العبادة وازدادت أهميتها في الإسلام كلما ازدادت أهمية أدائها والفراغ منها. حتى إذا ما وصلت العبادة إلى قمة الأهمية باعتبار قدسيتها وطولها وزيادة تضحية المكلف في سبيل أدائها، وصلت أهمية الانتهاء منها والشعور بالراحة والاطمئنان إلى حد يستحق أن يكون عيداً إسلامياً ينص عليه في الشريعة الإسلامية ويحتفل به المسلمون على طول العصور. وأهم مثال لذلك - عيد الفطر - الذي يأتي بعد الانتهاء من فريضة الصوم خلال شهر كامل. وعيد الأضحى الذي يأتي بعد الانتهاء من الأجزاء الأساسية في الحج، وبالتالي كأنه فراغ من الحج بشكل من الأشكال.

وليس من الصدف أن يقع عيد الفطر بعد ليلة القدر أو أن يقع عيد الأضحى بعد يوم عرفة، بعد أن عرفنا كيف إن ليلة القدر واقعة في قمة أداء العبادة وعيد الفطر واقع عند الانتهاء منها. كما ان يوم عرفة واقع في موقف من أهم مواقف الحج في قمة أداء هذه العبادة وعيد الأضحى واقع عند الانتهاء منها عادة.

الذبح أو الهدي:

يمثل الذبح حلقة من سلسلة تشريعات في الإسلام ـ إلزامية وغير إلزامية ـ جعل فيها للفقير حق في أموال الأغنياء، وشرع فيها الضمان الاجتماعي العام.

فلئن كان الأغنياء مالكين لأموالهم، فإن الله تعالى مالك لهم ولأموالهم وأولى بهم من أنفسهم، وهو برحمته التشريعية الكبرى يأبى عن أن يمتع الغني بما يحرم الفقير أو أن يبيت الغني مبطاناً وحوله بطون غرثى وأكباداً حرى ـ بل أن الفقير ليتناول حصته من أموال الغني بشرف واستحقاق باعتبار الأمر الإلهي الذي هو أكبر منهما وأهم بدون منّة أو تفضل أو ترتب أي أثر سيء. وإن الغني ليشعر أنه يؤدي بذلك واجبه الإسلامي قبل شعوره بكونه شفقة على الفقير ورحمة به ـ فلا ينقدح في نفسه الشعور بالمن والأذى.

وهذا معنى يشترك فيه سائر الصدقات في الإسلام، كالزكاة والخمس وغيرهما، ويختص الذبح في عيد الأضحى بميزة مهمة تكسبه ارتفاعاً عن مستوى سائر الصدقات، وما ذلك إلا وقوعه في عيد الأضحى، وهو العيد الإسلامي الكبير الذي ينبغي لكل فرد مسلم أن يشعر فيه. بشيء من الغبطة والفرح والراحة. ولا ينبغي بأي حال أن يختص هذا الشعور ببعض الأفراد أو بقسم من الأمة لمجرد تميزهم بالمال أو بارتفاع الشأن، بل يجب أن يسعد الفقراء ـ كما يسعد الأغنياء ـ ويشتركوا مع الأمة الباسمة في عيدها الإسلامي.

ولأجل اكتساب سرورهم يضاف إليهم في هذا العيد مضافاً إلى ما أخذوه من الحقوق المالية كمية من اللحم الوفير تعطى لهم من دون شعور بمنةٍ أو أذى ناتجة من أضاحي هذا العيد السعيد.

وليس هذا بدعاً في إسعاد الفقراء، فعيد الفطر أيضاً مقرون بوجوب دفع ضريبة زكاة الفطرة على الأغنياء، لكي تضاف إليهم أيضاً في هذا اليوم السعيد إلى دخلهم الإسلامي الآخر.

* * *

وتزداد أهمية هذا التشريع الكبير: الهدي، لو لاحظنا المكان والزمان الذي شرعا فيه حيث كان الفقراء في شبه جزيرة العرب

يعدون بالملايين بل يمثلون الشعب بأسره تقريباً، ويعتبر الحج الموسم الاقتصادي المهم لحصول هذا الشعب البائس على الأموال التي يضعها الحجاج في تلك البلاد عن طريق التعامل أو التصدق أو التضحية، فإن الحاج لا يرد إلى تلك الديار المقدسة إلا إذا كان مستطيعاً، بمعنى أنه مالك للمال الكافي الذي يزجي به حاجاته الشخصية والشرعية. وبالتالي له المال الذي يلقيه بين يدي الشعب هناك.

وهذا الموسم الاقتصادي الكبير، كان ولا يزال، أمل الفقراء والأغنياء في كل عام في تلك الديار لما يدره عليهم من أرباح، وما أسعد الفقير الذي يتذوق الخير ولم يشم رائحة القديد. إذ يحصل على مثل هذا اللحم المجاني من الله تعالى وبإلزام منه، من دون منّة ولا أذى.

نعم بعد أن نبع النفط في شبه الجزيرة العربية وازداد الدخل العام وقلت نسبة الفقراء قلة كبيرة، قلت أيضاً أهمية الذبح وأصبحت اللحوم تزيد عن حاجة الآكلين بكثير حتى أن ثلثيها، وثلاثة أرباعها تدفن تحت التراب تخلصاً من نتنها وجراثيمها.

إلا أن ذلك في الواقع ليس تقصيراً في التشريع الإسلامي وإنما هو تقصير في المسلمين، فكل تشريع يجب أن ينظم إليه عمل

يشد أزره ويساعده على النمو والإنتاج وإيتاء أحسن الثمرات للمجتمع والأمة الإسلامية.

وإن أهم عمل ينقذ هذه المشكلة المستجدة، هو أن يقوم المسلمون، لو كانوا واعين وشاعرين بالمسؤولية الإسلامية بجمع هذه اللحوم حين ذبحها وتعقيمها وتعليبها وتوزيعها في البلاد الإسلامية ولو كان ذلك من طريق شركة تتكفل هذه المهمة الكبرى، وتجني من ورائها الربح الوفير وبخاصة وهي تحصل على هذه اللحوم مجاناً دون مقابل بعد ذبحها الحجاج واستغنوا عنها.

يضاف إلى كل ذلك أن الذبح هو سنة من سنن التقرب القديمة التي قام بها الناس منذ الأزمان السحيقة في القدم، تحية وتزلفاً لمعبوداتهم وهو الله تعالى إذا كان الفرد إلهياً أو الصنم إذا كان الفرد مادياً. وقد أفتتح هذه السنة في مبدأ البشرية ابنا آدم إذ قربا إلى الله قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، فحسده الآخر ولاحاه حتى انتهى به الأمر إلى أن قتله، كما هو مسطور في القرآن الكريم. وقبول القربان من أحدهما دلالة على مشروعيته في نظر الله تعالى وصحة التقرب به. كما أن الإعراب عن ذلك في القرآن يدل على إقراره في الإسلام وصحته في شريعته.

ومن هنا أراد الله تعالى أن لا تخلو فريضة الحج من هذه السنة القديمة المشروعة، ليكون للحجاج أسوة بابني آدم عليه السلام يقبل الله من بعضهم ويرد من آخرين، بحسب اختلاف نياتهم وعقائدهم وأعمالهم، فيشارك الفرد مواكب الأجيال البشرية المتصاعدة منذ ذلك الحين إلى الآن ممن قربوا قرباناً إلى ربهم العلي العظيم.

الحلق:

وهو الواجب الآخر الذي يجب القيام به في عيد الأضحى المبارك وبه ينتهي القسط الأكبر المتزمت من محرمات الإحرام وتكاليفه ويوجب تحلل الفرد منه إلى حد كبير. ومن هذا المنطلق نستطيع أن نستوضح الحكم والمصالح المتوخاة من ورائه.

حكمته الأولى:

وهي أن الحلق أول فعل يقوم به الحاج حينما يريد أن يتحلل من إحرامه، فإن الإحرام بعد أن كان يحتوي على جملة من الممنوعات، بما فيها أمور تكون حلالاً للفرد غير المحرم، كان التحلل منه لا محالة بالإتيان بأحد الممنوعات المحللة في أصل الشريعة. للدلالة على عدم الالتزام بالإحرام من الآن فصاعداً، وقد أختار الله تعالى لعباده الحجاج الحلق أو التقصير لكي يكون رمزاً عن ذلك.

حكمته الثانية:

النظافة التي هي من الإيمان، ومن واضحات المطلوبات في الإسلام بل قد تكون من الواجبات وإعطاء الفرص الكبيرة والعديدة في التشريع الإسلامي للمكلفين، للتنظيف وإزالة الأدران، أكثر من أن يعد. يندرج في ذلك الأغسال الواجبة والمندوبة واستحباب التجمل والتطيب ولبس النظيف من الثياب واستحباب قص الأظفار.

ونحو ذلك من الأحكام. والإحرام قد يستغرق أياماً يعاني الحاج خلالها السفر والتعب والاختلاط بجماهير الحجاج، وتطرأ عليه من موجبات اتساخ البدن وطول الشعر الشيء الكثير، فمن هنا أمره الله تعالى بالرجوع إلى النظافة بمجرد الانتهاء من مهام حجه الرئيسية، وأستعجل ذلك قبل الانتهاء من كل أفعال الحج وإعطاء ـ بهذا الصدد ـ تشريعاً إلزامياً واحداً هو الحلق أو التقصير، ليكون الباقي موكولاً إلى الحاج نفسه يطيع به الاستحباب العام للتنظيف والتجمل في الإسلام بحسب الإمكان.

رمي الجمرات:

إذا كانت الكعبة هي الرمز المادي لتوحيد الله تعالى وكان الطواف واستلام الحجر، هو العمل الأساسي الذي يمثل

الإخلاص لله، وجعل توحيده المركز الحقيقي للإحساس والسلوك في تمام أيام الحياة. فما أحرى أن يكون هناك رمز آخر يضاد هذا الرمز ويناقضه، ولئن كانت الكعبة مستقطبة لكل معاني الخير والعدل، باعتبارهما المنتوجين الأساسيين لعقيدة التوحيد، فإن الرمز الآخر لا بد أن يستقطب كل معاني الشر والظلم باعتبارهما المنتوجين الأساسيين لما ترمز إليه الجمرة ـ وهي فكرة الشيطان ـ ولئن كان الطواف يعتبر ولاء للخير والعدل، وإظهاراً عملياً لتأييدهما فإن رمي الجمرة بالحصى هو العمل المهم في إظهار الشجب والاستنكار العملي للشر والظلم، وبشجبهما يفهم الفرد بوضوح شجب كل فكرة ناتجة عنهما، أو عمل مترتب عليهما، من الكفر والضلال والعصيان والانحراف وتستتبعه هذه الأمور من ذنوب وموبقات.

كما يفهم شجب المصدر الأساسي لهذه الأفكار والأعمال وهو الشيطان الذي آلى على نفسه غواية البشرية عندما لم يسجد لأبي البشر آدم عليه السلام ، فأصبح عدواً لله وللناس، يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس. كما يفهم شجب النفس الأمارة بالسوء ذات الزوايا الحادة والانحرافات العاطفية الخطيرة. التي لا تؤدي إلا إلى عصيان الله والنزول عن المستوى الإنساني الذي يريده الله لعباده والوقوع تحت طائلة تبكيت الضمير. ولا يخفى ما في الرموز المادية والتجسيدات الحسية الملموسة للأمور المعنوية

العليا، من تقريب مباشر لتلك الأمور إلى أذهان جمهور المسلمين. فإن الفرد بطبيعة معيشته التكوينية وارتباطه بحدود الزمان والمكان يصعب عليه إلى حد كبير أن يتجرد منها، ويصعد بنفسه وفكره إلى الأمور المثالية والعوالم الإلهية وقواعد العدل العليا ونحو ذلك مما يكون مجرداً عن المادة وأوسع من الزمان والمكان ويحتاج تصور مثل هذه الأمور إلى تدقيق واتساع ذهن وصفاء خاطر، لا يوجد إلا فيمن كان عالماً خبيراً أو مفكراً نحريراً.

أما الجمهور العام للمسلمين فسيبقى منعزلاً - إلى حد كبير - عن المعاني السامية والمثل العليا. ما لم تقرب له برمز حسي ملموس تستعمل فيه فكرة التجرد (السرياليزم) فلئن كانت فكرة التجريد ترمز عن المادة باللامادة وتخرج المادة من عالمها لتحولها إلى فكرة فإن رموزنا عكست الأمر فرمزت عن اللامادة بالمادة، وأخرجت الأمور اللامادية - في عالم الاعتبار - عن عالمها المجرد لتحولها إلى مادة محسوسة لتقع تحت النفع المباشر لجمهور المسلمين، فتهبهم ذكريات الأمور المعنوية لكي تقوم بدروها الثوري في الدفع الإيماني والجهاد العقائدي المقدس.

ومن ثم كان هناك رمزان مستقطبان لأمرين لا ماديين مستقطبين فالكعبة رمزاً لله والجمرة رمز للشيطان، ولا يكفي أن

يظهر الإنسان ولاءه لله من دون أن يستنكر كيد الشيطان وإلا كان من الممكن أن يكون موالياً لكليهما مطيعاً لهما على اختلاف ساعات حياته، فلا يكون متمحضاً لطاعة الله تعالى وتوحيده، فلأجل التخلص من هذا المحذور جعل رمز الشيطان لكي يجدد المسلمون كل عام استنكاره وشجبه.

وكما يفهم الحاج الواعي أن الولاء لله وعمق الإخلاص له، لا ينبغي أن يقتصر على الطواف الرامز عن ذلك، بل يجب ان يبقى الولاء والإخلاص حياً في الذهن والشعور مدى الحياة ومطبقاً في تمام سلوك الإنسان - فكذلك الحال في جزئه المتمم له وهو استنكار الشيطان وشجب ما يصدر من انحراف وضلال ـ يجب أن لا يقتصر على زمان رمي الحصيات السبع، بل يجب ان يبقى حياً في الذهن والشعور مدى الحياة ومطبقاً في تمام سلوك الإنسان، ليصدر الفرد في سلوكه وعقيدته عن التوحيد الخالص عن شرك الشيطان.

* * *

على أننا يجب أن لا نغفل فرقاً أساسياً بين هذين الرمزين المستقطبين. فالكعبة بما انها رمز عن الله تعالى وعن توحيده أذن فيجب أن يبقى الرمز واحداً لا يتعدد. على حين ان الجمرة، بما انها رمز عن الشيطان والشياطين متعددون بنص القرآن الكريم،

ناسب ان تتعدد بتعدد المرموز إليه.

فمن هنا نستطيع أن نعزو تعدد الجمرات إلى الرمز عن تعدد الشياطين كما يمكن أن تعزي إلى تعدد وجهات الفساد والظلم الصادرة عن الشيطان فإن المثل الأخلاقية وقواعد العدل العامة مستمدة من مصادر ثلاثة مختلفة في الجبهة ومتفقة في النتيجة هي:

أولاً: أوامر الشريعة الإسلامية ونواهيها.

ثانياً: القواعد العامة المستقاة من العقل العملي المجرد.

ثالثاً: القواعد العامة المستقاة من سيرة العقلاء بما هم عقلاء. ونتائج كل واحد من هذه المصادر حق وعدل يجب إتباعه على بحث وتحقيق ليس هذا مجال الإفاضة فيه.

وعلى كل حال فمخالفة كل واحد من هذه الأسس الثلاثة الكبرى انحراف وضلال في نظر الإسلام، ومن ثم كانت الرموز إلى نتائج الشيطان ثلاثة هي الجمرات الثلاث، تعددت بتعدد عصيان تلك الأسس الكبرى.

ولعلنا نستطيع أن نلاحظ في هذا الصدد أن القسط الواجب من إظهار الولاء لله عز وجل بالطواف يعادل في العدد تقريباً،

ما تناله كل جمرة من دفعات الاستذكار بالرمي، فالطواف الواجب ثلاثة: طواف العمرة وطواف الحج وطواف النساء، وعدد دفعات الرمي لغير جمرة العقبة ثلاثة أيضاً، مرة في اليوم الحادي عشر من ذي الحجة ومرة في الثاني عشر ومرة في الثالث عشر منه. والرمي في جمرة العقبة ثلاث أيضاً لمن خرج من منى في النفر الأول وهو اليوم الثاني عشر، وأربعٌ لمن بقي لليوم الذي يليه فتزيد على أختيها بمرة واحدة هي المرة الأولى التي ترمى يوم العيد.

كما أننا إذا لاحظنا عدد أشواط الطواف وعدد الحصى المرمي في كل جمرة لرأيناه متحداً أيضا وهو سبعة في كلا الحالين، فنفهم من ذلك معنى من المعاني الكبيرة، وهو أن الوازع إلى الله تعالى والوازع عن الشيطان[1] يجب أن يكونا متعادلين في نفس الإنسان متعاونين في تربيته وتكميله.

وهذه هي القاعدة في كل إيمان مخلص، فإنه كلما أقترب الإنسان إلى الله أبتعد عن الشيطان، وكلما أبتعد عن الشيطان أقترب إلى الله تعالى. وأما إذا أختل الميزان وأختلف المقدار فكان البعد عن الشيطان أقل من القرب إلى الله تعالى أو أكثر منه كان في ذلك احتمال الانزلاق والانحراف لأنه إن قل البعد عن

(١) أي المقرب إلى الله والمبعد عن الشيطان.

الشيطان كان هناك مجال لاقتراف الظلم والعصيان وإن قل القرب عن الله عز وجل كانت القوة المانعة عن مكافحة الشيطان أضعف، وعلى كلا الحالين ينتج احتمال الانزلاق والانحراف.

ولعل من الطريف أن نلاحظ تشريعاً بسيطا في الحج لا يكاد يكون ملفتاً للنظر في ذلك الخضم الهائل من الأعمال المتواصلة، ونقصد به استحباب جمع الحصيات من أرض المشعر الحرام لاستعمالها في رمي الجمرات.

إنه ليعطي رمزية كاملة وواضحة عن إن الفرد يجمع سلاحه ضد الشيطان من بقعة إلهية مقدسة من أرض الله تعالى، وهذا ما يجب أن يكون عليه العمل في جميع أنحاء السلوك، فإن الإنسان دائماً يدفع بجنود الله قوى الشيطان يدفع بقوة الإخلاص والإيمان كل ما قد ينزلق إليه من عصيان أو ضلال، ومن الملاحظ دائماً أنه كلما قويت (جنود الله) في النفس ازداد الإنسان نصراً على مزالقه وانحرافاته، وكلما ضعفت جنود الله تعالى في نفس الفرد استطاعت جنود الشيطان وغواياته أن تقوى وأن تمتد حتى أنها قد تستفحل وتسيطر على حياة الإنسان ومشاعره وسلوكه، حتى ليصبح عدو الله وإن لم يستشعر العداوة بعيداً عن ساحته وإن لم يستشعر البعد، خاسراً للخير والعدل وإن لم يلتفت إلى الخسران.

* * *

ولعله في المستطاع أن نستفيد رمزية الجمرة عن «الشيطان» من تسميتها بهذا الاسم نفسه، باعتبار كون خلقة الشيطان من النار، كما نص عليه القرآن الكريم، والنار هي الأساس في تكوين الجمر، والعنصر الأكبر فيه.

وكذلك الحال في تسمية الجمرة الأولى التي يجب رميها يوم العيد بجمرة العقبة، باعتبار أن الشيطان ومخلفاته من الظلم والانحراف والفساد هو العقبة الكؤود ضد الإيمان والإخلاص، وضد سيطرة «جنود الله» على الإنسان كما يريده الله تعالى أن يكون.

ولا يخفى ما في تشريع رمي هذه الجمرة في يوم الأضحى وتجمهر المسلمين حولها طول النهار راجمين مستنكرين، لا يخفى ما فيه من المعنى الكبير والإعلان الواضح على رؤوس الأشهاد في العيد الإسلامي الكبير، عن هذا المعنى الجليل، وهو استنكار الشيطان وشجب أعماله ومغرياته، وهو ما يوحي إلى أن النفس بهذا المعنى بشكل أكثر وأكد رسوخاً وعمقاً.

* * *

وقالوا أن رمي الجمرات استمرار إسلامي لرجم قبر أبي رغال الذي دل أبرهة الأشرم ـ الذي كان قاصداً هدم الكعبة ـ على مكة

وإن باء ذلك التخطيط بالفشل إلا أن العرب رجمت قبر أبي رغال وأقر الإسلام ذلك الرجم فأصبح بشكله الجديد رمياً للجمرات.

إلا أن هذا الرأي لا يكاد يصح لعدة اعتراضات ترد عليه:

أولاً:

أن التواريخ ذكرت أن العرب رجمت قبر أبي رغال، وقد بعثته ثقيف ليدل أبرهة الأشرم على الطريق حتى أنزله في المغمس، فلما نزله مات أبو رغال فرجمت العرب قبره فهو القبر الذي يرجم[(١)] والعرب تتمثل بذلك، وفي ذلك يقول جرير بن الخطفي في الفرزدق.

إذا مات الفرزدق فارجموه

كما ترمون قبر أبي رغال[(٢)]

وليس لهذه القصة أي ارتباط برمي الجمرات ولم يذكر المؤرخون ذلك، مضافاً إلى أن أبا رغال مات في المغمس بين الطائف ومكة[(٣)] لا في (منى) حتى يقال أن الرمي فيها استمرار لذلك الرمي.

---

(١) الكامل لابن الأثير ج١ ص٢٦٠ وما بعدها.

(٢) مروج الذهب للمسعودي ج١ ص٥٣ وانظر ص١٠٤ منه أيضاً.

(٣) مروج الذهب للمسعودي ص٥٣ .

ثانياً:

لو سلمنا ـ جدلاً ـ أنه دفن في «منى» وأنه رجم فيها فليس له إلا قبر واحد ومنطقة رجم واحدة، على حين أن الجمرات ثلاث، فما هو السبب في وجود الاثنين الآخرين؟!

ثالثاً:

لو صحت هذه القصة بكل تفاصيلها، فهي مما تؤيد ما ذكرناه، فإنها تنتج أن النصب الذي يرميه الحجاج هو رمز للخيانة، والخيانة في واقعها أحد مسببات الشيطان وأحد الأفعال المنحرفة للنفس الأمارة بالسوء. ومعه يكون الأنسب للذهن الواعي أن يخرجها من هذه الدائرة الضيقة ويجعلها رمزاً للشيطان بكل منتوجاته وللنفس الأمارة بالسوء بكل أفعالها وشهواتها، ليكون رميها استنكاراً لكل ذلك لا للخيانة وحدها.

وعلى أي حال فتطبيق رمي الجمرات على قصة أبي رغال مما لا يصح وإنما الوجه الصحيح والمشهور بين المسلمين هو ما ذكرناه من رمزيتها عن الشيطان، ويكون هو الجواب التام عن الوجه في تعدد الجمرات وتعدد الرمي.

النية:

ولا بد في الحج وفي كل عبادة من نية، والنية هي روح العبادات لاحتوائها على قصد التقرب بالعبادة إلى الله تعالى، وهي بدونها جسدٌ بلا روح. فإن المقصود الأساسي من العبادات هو اكتساب رضاء الله تعالى ونيل القرب المعنوي منه وإبداء غاية الإخلاص له والتزلف إليه ومثل هذا الفرض السامي لا معنى لوصوله بالإتيان إلا بهذا القصد نفسه. وإما إذا تجردت عن ذلك، فقد انسلخت عن هذا الغرض السامي وخرجت عن كونها عبادة لله تعالى.

والحج بصفته عبادة من أهم العبادات، لابد أن يكون حاملاً لهذه الروح ومأتياً به بهذا القصد، وليس هو ـ كما عرفناه - إلا مجموعة عبادات متصلة مترابطة يقصد بكل منها نحو من التقرب إلى الله وشكل من أشكال إبداء الإخلاص إليه ونحو من أنحاء الخشوع لقدسه. والعبادات وإن كانت أخص أنحاء التقرب إلى الله تعالى ولذا كانت مشترطة بأصل التشريع بقصد القربة بحيث تكون بدونه باطلة إلا أن سائر الأفعال المطلوبة إسلامياً مما يقصد به النفع العادل لشخص أو المجتمع أو للدين أو للبشرية ونحو ذلك من الأعمال إنما تكتسب شرفها وصيغتها الإلهية وتعبر عن إخلاص صاحبها، فيما إذا اقترنت بقصد التقرب إلى الله تعالى وتجردت عن قصد أي غرض آخر ضيق منحرف، وبالتالي إذا

اقترنت بنية العبادات بشكل عام.

الوقت:

ونريد به كون الحج موقتاً في وقت محدد هو عيد الأضحى وما يحيط به من أيام في ذي الحجة الحرام، ولا يمكن أن يؤتى به في أي يوم من أيام السنة إلا في ذلك الحين من كل عام.

والمصلحة من ذلك واضحة كل الوضوح وهي اجتماع كل المسلمين الحجاج على صعيد واحد في وقت واحد لكي يستطيع كل فرد منهم الحصول على جملة من المصالح العامة التي ذكرناها في الحج، مما لا يمكن أن يحصل بالانفراد أو بجمع قليل من الناس، كالشعور بالأخوة تجاه المسلمين ومسائلتهم عن آمالهم التي يحسونها في بلادهم، وحل القضايا والمشاكل الدينية والاجتماعية معهم واستغلال اجتماعهم لتذكيرهم بأوامر الله وأيامه ودعوتهم إلى العمل الصالح. ومن المعلوم أن كل هذه المصالح مما لا يمكن أن تحصل مع قلة العدد وتفرق الجمع، إذ لو كان مسموحاً بالحج في سائر أيام السنة لحج الناس في مختلف الأيام، فلم يبق في الزمن الواحد مقدار مهم يمكن تطبيق هذه المصالح بالنسبة إليه.

خاتمة

وبعد:

فهذه هي جملة من المصالح والحكم التي يتوصل إليها الذهن القاصر وهي بجملتها وتفاصيلها كافية للأمر بهذا التشريع العظيم والتضحية من أجل امتثاله وتطبيقه، مضافاً إلى أمكان أن يكون هناك أهم مما ذكرناه أو بمستواه مما يترتب على هذه العبادة الكبرى. ومما ينبغي أن نلاحظه في هذا الصدد، هو أن الوعي الإسلامي والحج يتناسبان تناسباً طردياً، أحدهما صالح لتعميق الآخر والتسبب إلى صقله والإخلاص فيه.

أما تسبب الحج في تكوين الوعي، فلما عرفناه مفصلاً من التفات الحاج قهراً إلى بعض المصالح وبعد شيء من التفكير إلى بعض المصالح الأخرى مما ينمي وعيه الإلهي والديني سواءاً من الناحية الشخصية أو الاجتماعية.

وأما تسبب الوعي إلى صقل الحج وتعميقه فلوضوح أن الفرد إذا كان واعياً سلفاً، فإنه سوف يعيش الحج بذهن وفكرٍ غير الفكر

الذي يعيش فيه الفرد العادي. وسيلتفت بدون عناء إلى جملة من المصالح والمعاني الكبرى التي قام عليها الحج وأسس من أجلها. وستزيده هذه الحكم بدورها وعياً وثقافة وإيماناً ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

النجف الأشرف محمد الصدر
٨ /٣/ ١٣٨٩ هـ - ٢٥/٤/١٩٦٩م

المصادر:

١- القرآن الكريم.

٢- علل الشرائع للصدوق.

٣- أصول الكافي للكليني.

٤- شرائع الإسلام للمحقق الحلي.

٥- الكامل لابن الأثير.

٦- مروج الذهب للمسعودي.

٧- الطريق إلى مكة لمحمد أسد.

٨- فلسفة الثورة لجمال عبد الناصر.

الفهرس